رسائل العالم الإسلامي السّفارية إلى العالم البيزنطي في العصر العباسي الأوّل "رسالة هارون الرشيد إلى قسطنطين أنموذجا"

أ- زهير بوحولي*

I- الجدل الديني في الرسالة وثقافة المحاورة

1- أسس الحوار:

نستطيع القول: إن الحوار الإسلامي المسيحي تأسّس في هذه الرسالة بشكل معلن بواسطة نص الآية 125 من سورة النحل: *"ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"*.[1]

فهو من هذا المنطلق أساس قرآني به حدّد صاحب الرسالة دوره المنوط به، الذي بناه على مبدأ قيمي مستمدّ من القرآن أيضا. إذ ربط دوره داعية بمستهل الآية " *ادع إلى سبيل ربّك*" فهو داعية إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة في أسلوب بعينه هو "المجادلة بالتي هي أحسن". وبما أن المجادلة عمل قوليّ فإن المجادل في هذا المقام رفع شعارا الآية الثالثة والثلاثين من سورة فصّلت: *"ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنّني من المسلمين"*.

ويبدو أن الباث في هذه الرسالة لم يكتف برفع شعار "القول الحسن" بل التزم به على امتداد فصول الجدل الديني الذي خاض غماره فلم يحد عنه قيد أنملة وقد أثر هذا الالتزام بأسّ الحوار وشعاره في طبيعة الخطاب الذي تراوح بين الحضّ على التواصل والترغيب في النظر والتدبّر وإعمال العقل والحمل على اتهام النفس ونقد الذات.

2- أسلوب المجادلة:

ينمّ الأسلوب الذي جادل وفقه محمد بن الليث الإمبراطور البيزنطي على لسان الرّشيد، عن حنكة ودراية وخبرة بمجال الجدل عامة. وقد تبينا عنصرين كبيرين: الأول ذو وظيفة تمهيدية وهو عبارة عن عطف السامع واستمالته ليتقبل

---

* أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

[1]- انظر أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب، المجلد 3، الشطر الأول من رسائل العصر العباسي الأول، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ص 218. وسنصطلح على هذه النسخة من تحقيق الرسالة بـ: (صفوت) وسنقارن أحيانا بينها وبين النسخة التي حققها هادي عيد في:
Hadi, EID: Lettre du Calife Haroun Al Rashîd à l'Empereur Canstantin VI, 1992
وسنسطلح على هذه النسخة بـ (عيد).

المجادلة قبولا حسنا. وأما العنصر الثاني فهو بمثابة استراتيجية في الحجاج تعكس لنا مدى النضج الذي بلغته المناظرات الكلامية في القرن الثاني الهجري.

2-أ- عطف السامع: ويبدو أن النّزوع إلى استمالة المخاطب في الرسالة راجع إلى التزام بالأخلاق الإسلامية علاوة على كونه سنّة في الكتابة على ما تقتضيه الرسائل الموجّهة إلى الملوك. "وكنت (...) بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته وانتفاعك بمجادلته (...).[1]

وقد اتخذ عطف السّامع على مضمون المجادلة شكل الحض على التواصل بصفة عامة. نقرأ في صدر الرّسالة: "فإنّ الله عزّ وجلّ يقول فيما أنزل من كتابه واقتصّ على عباده: *فبشّر عبادي الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب*" (الزمر 17-18).[2]

لا يمكن لهذا الشاهد القرآني إلا أن يكون مقبولا لدى الإمبراطور البيزنطي فهو خطاب إلى البشر عامة دون تخصيص على ملة بعينها إضافة إلى أنّه يشجع على فضيلة اتباع أحسن القول دون شروط من عقيدة أو عبادة فضلا عن اعتبار المستجيب إلى ذلك من العقلاء.

ولم يخرج الخليفة العباسي فيما كتب له ابن الليث عن سنّة النبي ومخاطبة أهل الكتاب التي أرستها الآية 64 من سورة آل عمران، فقد ضمّن دعوته إلى الحوار والتواصل معناها قائلا: "فأحبّ أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعض أربابا من دون الله".[3]

ومن مميزات هذه الآية أنها تحوي قدرا كبيرا من التسامح وقبول الآخر، فهي إذ تدعو إلى نوع من التقارب العقيدي في مستوى عام هو التوحيد تكتفي بالأمر بالاحتفاظ بالتمايز الديني في صورة رفض أهل الكتاب مثل هذه الدعوة "فإن تولوْا فقولوا اشهدوا أنّا مسلمون" وهو ما التزم به ابن الليث " فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه، أو تركتموه زهادة فيه، فاشهدوا بأنّا مسلمون".[4]

وإن أمعنّا النظر في هذه الدعوة إلى التواصل والتحاور وجدنا ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بين عناصرها: حسن الاستماع إلى المحاور: "واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم ومحتجّ به إن شاء الله عليكم بقلوب شاهدة، وآذان واعية ثم اتبعوا أحسن ما تستمعون".[5]

وما يلفت النظر أن الدعوة إلى حسن الاستماع ظلت أمرا قارّا يعود إليه الباث في ردهات الرسالة فاستحالت منهجا في خطاب المجادلة وأسلوب المنافحة عن الإسلام. يقول ابن الليث: "فأردت أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من

[1]- صفوت، 218 + عيد 122-123.
[2]- نفس المصدر
[3]- نفس المصدر
[4]- نفس المصدر
[5]- نفس المصدر

أمر محمد صلّى الله عليه وآله وسلم وحقه وما أنزل إليه من ربّه عزّ وجل، فأحضر كتاب أمير المؤمنين فهمك وألق ما هو واصف إن شاء الله سمعك."[1]

ونقرأ في معرض استدلاله على علامات النبوّة "وأمّا الآيات العوام والدّلالات الظاهرة... التي تنكر عقول الأمم وجوب حققها... فسيولجها أمير المؤمنين مسالك أسماعكم".[2]

وقال في موضع آخر: "ألا تسمعون إلى قول الله عزّ وجل" (عيد 140).

وفي موضع آخر: "فزنوا ما سمعتم من حجج كلام الرّب عزّ وجل" (عيد 150).

وقال أيضا: "واستمع أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم" (عيد 154).

ونقرأ في موضع آخر من الرسالة: "فلا تلقينّ إلى ما قاله الضالّ سمعك ولا تنصت الدّهر إليه ذهنك" (عيد 167).

وفي دحض مبدأ التثليث في المسيحية يقول ابن الليث: "لتعلمنّ أن الواحد لا يكون ثلاثة وأن الثلاثة لا تكون واحدا إلا على وجه ما له ثان (...) فألق نحوه سمعك وأنصت إليه فهمك فإنّ أمير المؤمنين واصفه لك" (عيد 171).

ونجده مرّة أخرى يحرّض على السماع مستشهدا بالآية 18 من الاشتراع من سفر التثنية "ألا تسمع قول الله: أجعلُ كلامي على فمه كي يُعنى به، أمّيٌ لا يقرأ ولا يكتب"" (عيد 178). وليس عطف السامع في هذه الرسالة سوى أصل نوع عليه ابن الليث من عطف القلب والعقل والوجدان.

من ذلك قوله: "فسبحان الله يا أهل الكتاب ما أبين حق النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه وأسهله لمن قصد له؛ واستعملوا في طلبه ألبابكم وارفعوا إليه أبصاركم تنظروا بعون الله إليه وتقفوا إن شاء الله عليه"(صفوت 225-226).

ومن ذلك قوله لمخاطبه: "وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجّك فيه حاكما غير عقلك ولا قاضيا سوى نفسك" (صفوت 227).

ومن ذلك أيضا: "فناصحوا الله عز وجل في نظركم وقلّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم (...) فأحضر كتابي هذا فهمك واصبر له وإن خَصَمَكَ" (صفوت 244).

إن هذه الدعوة إلى إعمال العقل تثبّتا وتقليب نظر هي ممّا يميز أسلوب ابن الليث في مخاطبته للآخر: الإمبراطور البيزنطي ومن إليه من أهل الكتاب. ولم يفتأ يلحّ على ذلك في مواضع عديدة من الرّسالة. ومن أمثلة ذلك:

قوله: "فأحسن النظر في أمرك والتثبت في دينك" (صفوت 247) وقوله يحتجّ لما حققه النبي محمد من ظهور كبير في زمنه: "ولئن أعدت النظر وكرّرت فقلت: كيف وافق خبره أثره وكيف صدّق فعله قوله حتى غلب الشرق والغرب؟"(صفوت 248)

---

[1]- صفوت 222 + عيد 128.

[2]- صفوت 226 + عيد 133.

وقوله حاثا على مراجعة النفس في اتخاذ انتشار الإسلام دليلا على صحة ما جاء به وما يعضد ذلك من تبشير الأديان السماوية السابقة به: "ولئن رجعت إلى قلبك، لتقولنّ في نفسك لعمرو الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس وامتدّ امتداد النهار فبلغ مشارق الأرض ومغاربها (...) لبشّرت الكتب به وتنبّأت الرسل عليه (...) ولو كان ضلالة وجهالة وعماية لتقدّموا في التحذير منه والتزهيد فيه".

ثم هو بعد ذلك يدعو ملك الرّوم إلى البحث في كتب الأنبياء السّابقين عن البشارة بمحمد نبيا مرسلا: "فأيم الله لئن طلبت لتجدنّ ولئن اجتهدت لتوفقن" (صفوت 252).

هكذا ضلّ مؤلف هذه الرسالة من فقرة إلى أخرى ومن فصل إلى آخر يوجّه خطابه داعيا محرّضا وحاثا محذرا آمرا ناهيا في كبير تلطّف مراعيا مكانة المخاطب من جهة حريصا على شدّه إليه فلا ينفر من مقالاته من جهة أخرى. ولعلّ ذلك ينمّ عن شيء قصد إليه صاحبه قصدا ولم يكن مما يعرض له ويتفق.

2-ب- استراتيجية الحجاج: بينا فيما سبق أن المخاطب قد اعتمد أسلوب عطف وجدان السّامع وعقله على مضمون المجادلة في التمهيد وشدّه إليه في ثنايا الرّسالة. وواضح أن الهدف الرئيس في المجادلة هو الإقناع. وبما أن ذلك يصعب في العقائد فإنّ الهدف الكبير يفكك إلى أهداف صغرى قد لا يستعاض بها عنه ولكن تحقيقها قد يفيد قي بلوغه. من ذلك إسقاط عذر المحاور/ لمجادَل في التشبث بعقيدته عن طريق إبطال الركن أو الأركان الأساسية فيها. ولكن عملية الهدم هذه يجب أن ترافقها عملية بناء بواسطة الاحتجاج على صحّة العقيدة المخالفة بالتركيز كذلك على أساسها الجوهري وهو في نصّ الحال "توحيد الله" وضديده عقيدة التثليث المسيحية. ولدحض هذه وإثبات ذاك كان لزاما على محمد بن الليث أن يستدلّ لقضيتين يثبت في إحداهما أن محمّدا رسول يوحى إليه من عند الله وفي الأخرى أن عيسى عبد الله ورسوله وليس إلها يُعبد.

ولقد كان عطف السّامع جزءا من استراتيجية الخطاب عامّة. أما جزؤها الثاني فهو الحجاج الذي نرى أنّه خضع لاستراتيجية مخصوصة توخّى فيها المحاجج طريقة المجادلة الافتراضية ولها في الرسالة مبادئ وأساليب.

- **أما المبادئ:** فتنقسم قسمين: قسم أخلاقي وآخر منهجي استدلالي.

ونقصد بالأول أن ابن الليث كان حذرا في مخاطبته لقسطنطين السادس فلم يكف طوال الرّسالة عن وضعه موضعه كما بيّنا ولم ينس أن مخاطبه هو أمير المؤمنين فذكر بذلك مرات عديدة من قبيل: "وسيذكر لك أمير المؤمنين من علامات النبي" (صفوت 262) أو "فهب امير المؤمنين قبل هذا الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم" (صفوت 266)، أو قوله "إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالا جمّة وصرف إليك مسائل كثيرة وبيّن لك من آيات النبي (...) وعلامات الوحي قليلا من كثير واضحا من تفسير" (صفوت 262)

ومن المبادئ الأخلاقية التي نستنتجها استنتاجا ونتأولها في خطاب الرّسالة تأوّلا تجنّب الباث سوء القول من النعوت التي ينعت بها محاوره أو أهل ملته من أهل الكتاب. مثال ذلك ذكره أنّ الله أنزل آية وحدانيته "ليوقن الجاهلون من العرب والضالون من أهل الكتاب أن إله السماء والأرض (...) واحد لا شريك له" (صفوت 219). فنسب العرب إلى الجهل ونعت أهل الكتاب بالضلالة احتراما لهؤلاء لأنّ كتابهم يعصمهم من الجهل الذي فشا في العرب لعدمهم كتابا بين ظهرانيهم. بمعنى أنّ نعت الضلالة يعكس شحنة دينية وإن كانت ذات طابع سلبي ولا تمسّ من منزلة أهل الكتاب في حين شحن لفظ "الجاهلون" بدلالة التحقير والتعيير.

ولعلّ ما يقوّي ما ذهبنا إليه هو تأدّب ابن الليث في مخاطبة محاوره إذ ينسب إليه العلم "فقد يعلم أمير المؤمنين وأنتم بذلك من العالمين" (صفوت 237)، أو حين يدعو له ببعض صالح الدعوات "وافهم المسألة فهّمك الله الحق وجنّبك الجحد" (صفوت 228).

ونقصد بالقسم المنهجي الاستدلالي في مبادئ المجادلة ما ألزم به ابن الليث نفسه من حدود في المناظرة وشروط في الاستدلال. من ذلك أنه كان واعيا "بعبثية" الاحتجاج بالنصوص القرآنية من دون برهان عقلي يعضدها لأنّ المخاطب مخالف في العقيدة فلا يُحتج عليه بما ينكره أصلا. يقول "ولولا أنّ هذا ما ينكره عقلك ولا يدفعه نظرك لما جادلتك بالكتاب ولا نازعتك بالتنزيل وإنّي لأترك من آيات النبي (...) وعلامات الوحي ما هو أعظم من هذا وأبين (...) ولكن ليس لي أن أحاجّك من آيات القرآن إلا بما عليه شاهد من برهان ومخبر من بيان لا يستطيع عقلك ردّا له" (صفوت 246). أضف إلى ذلك أنه وضع في حسبانه اختلاف الثقافة نتيجة اختلاف الانتماء الحضاري فلم يستدلّ لمخالفه بما هو لدى المسلمين بدائه موروثه وليس كذلك في عرف أهل الكتاب مع إدراك عال لأثر الزمن في نقل العقائد من جيل إلى آخر واستقرارها. يقول في ذلك وهو يصنّف الحجج إلى خواصّ يحتج بها على العرب وإلى عوام لا تنكرها عقول الأمم "فأمّا الخواص المعروفة لدينا، المعلومة عندنا، التي أخذها الأبناء عن الآباء وقبلها الأتباع عن الأسلاف، فأمور قد كثرت البيّنات فيها، وتداولت الشهادات عليها، وثبتت الحجج بها وتراخت الأيام ببعضها، حتى رأيناه عيانا وقبلناه إيقانا، فهي أظهر فينا من الشمس، وأبين لدينا من النهار، ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها ولم ينقل الآباء إليكم علمها، وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الحجة عن العقل، فليس أمير المؤمنين بمحاج لكم ولا قاصد إليكم من قبلها"(صفوت 226).

- وأما أساليب المجادلة التي اصطنعها أبو الربيع اصطناعا فإنها مما اشتهر في مختلف المدارس الأصولية والكلامية واستقر سنة في الحجاج لا يكاد يخرج عنها المجادل. ورغم أنّ هذا النص هو أقدم النصوص الكلامية التي وصلتنا فإننا لا نعتقد في ريادته نظرا إلى ما اتسم به الأسلوب من تنوّع وثراء يُبين عن تقاليد راسخة.

وليس يهمنا من أساليب إستراتيجية الحجاج في الرسالة مدى نجاعتها في إفحام الخصم والانتصار للعقيدة الدينية بقدر ما يهمنا منها ما تعكسه من عمق ثقافة الحوار وأخلاق المجادلة رغم أنّ الموضوع الذي يدور عليه الجدل محفوف بالمخاطر ولا يمتنع من المزالق التي من شأنها أن تورث العداوة بين الطرفين.

ونعني بأساليب المجادلة تلك التنويعات على أصل السؤال والجواب من قول وردّه أو اعتراض ودفعه أو إقرار ودحضه أو تسليم ونفيه. كل ذلك في مستويات مختلفة تتراوح بين الكلي والجزئي والعام والخاص مع استشهاد بمنقول أو دعم بمعقول.

ولا جرم أن المحاورة تجري عادة بين طرفين فاجتهد أبو الربيع كل مرة في تعيينها فهما تارة الطرفان الأصيلان: أمير المؤمنين باثا وملك البيزنطيين متلقيا أو ما يشير إليهما من الضمائر. وطورا يستبدل المحاور بأهل ملته فهم أهل الكتاب. وطورا آخر تتغير المواقع فيغدو الباث متقبلا والمتقبل باثا وينتقل المجيب إلى وضع السائل.

ولا يتوقف التنويع في أسلوب المحاورة عند هذا الحد إذ يحمل المتكلم في الرسالة من يتحدث إليه على أن يسائل قومه وأهل ملته بل ورجال الدين في قضايا عديدة حيث يتسنى له أن يكيل التهم ويعمّق المآخذ فيتحرّر من قيد الحذر في مخاطبة الملوك إلى نقيض ذلك ونعني التمتع بسلطة المَلِك في محاورة أساقفته والمنكرين لنبوة محمد من أهل ديانته فله أن يغلظ لهم القول ولابن الربيع من وراء ذلك أن يشدّ عليهم ويحكم في بعضهم بما لا يقدر أن يصارح به قسطنطين عظيم الرّوم.

مثال ذلك وضعُ ابن الليث مخاطبَه وجها لوجه مع جاحد مفترض يجادله ثم سعيه في إيغار صدره عليه قائلا "فلا تلقينّ إلى ما قاله المضل سمعك (...) فإنّه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك وسلّما إلى الشك في دينك وعلة في الطعن على ملتك ولكن قل: يا وليّ الشيطان أنّى وقع لك إيمان بأنّك من ولد فلان (...) فإن جحد وأبى ألا يؤمن بما لا يرى فقل أرأيت لو كنت سميعا أعمى أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا من سماء أو هواء (...) أو أرض أو جبل أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس؟. فإن قال نعم فقل هل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب، وما لدائه دواء غير الصلب؟" (صفوت 254-255).

ومن أمثلة ذلك أيضا "وسل من قبلك من أساقف أمّتك وشمامسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ويرفعونه أن يكون عبدا، على أي شيء وقع اسم المسيح من عيسى، على الروح أم على الجسد أم على كليهما؟" (صفوت 260).

ونقرأ في الرسالة ما يدلّ على تجنب المجادِل المسلم نعت محاوره الأصيل ملك الرّوم، بنعوت قبيحة كنعت الكذب مثلا وهو ما به آلية تغيير المواقع كما بيّنا.

يقول محمد بن الليث: "وسل من قبلك : أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكماله (...) فإن قالوا نعم، فقد انكسر قولهم: إن الله بكل مكان. وإن قالوا : لم

يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا إذن في قولهم إنه قد خرج وأقرّوا أنه قد ولد تعالى الله عمّا يصفون وتنزّه عمّا يشركون" (صفوت 261).

بل أنّنا نظن أن معظم الأسئلة المحرجة لم يحاجج بها ابن الليث الإمبراطور نفسه بل توجّه بها إلى أهل الكتاب عامة أو كما ذكرنا حرّض مخاطبه على أن يلقيها على من إليه من علماء النصرانية في تحدّي المناظر.

ولعلّ ما يتفق مع هذا الذي ذهبنا إليه أن مؤلف الرسالة احتفل احتفالا كبيرا بمخاطبه ملك الرّوم رأسا متوسعا في ذلك القسم الأول الكبير من المجادلة المخصص لدعوته إلى الإسلام والبرهنة على صدق نبوة محمد وحقيقة الوحي.

ومن أساليب الجدل المشهورة عند المتكلمين ذلك الأسلوب الذي غدا تقليديا في أدبيات الجدل عامة وعلم الكلام خاصة والذي يقوم في صيغته النحوية على جملة الشرط وجوابه. هذه الصيغة التي تؤسس آلية افتراض مقالة ثم التحوّل إلى الردّ عليها ومناقشتها.

وقد زخرت الرسالة بهذا الأسلوب بل مهّدت إليه تمهيدا ثم انتشر بعد ذلك فيها انتشارا لا يمله القارئ لتنوع الصيغ وثراء المعجم الذي تمتح منه لغتها.

فأما التمهيد إلى هذا الأسلوب فظاهر فيما استهل به ابن الليث محاورته بعد أن ذهب شوطا في السّرد والرواية إخبارا عن حال النبي في قومه إبّان دعوته. يقول مخاطبا الإمبراطور البيزنطي: "وستقول -فيما يذهب إليه الظنّ، ويقع عليه الرأي- (...) هذه آية حاسمة وحجّة قاطعة بيّنة قائمة (...) ثم تقول: وأنّى لك بالبينة؟ ولسنا نقرّ بكتابك ولا نؤمن برسولك (...) فأرجعُ إليكم إن قلتم ذلك: فإنّ وجدان القضاة قبل طلب البيّنات" (صفوت 227).

وأمّا انتشار أسلوب المجادلة هذا الذي يمكن أن يسمّى "أسلوب إن قلتَ قلتُ"، فقد كان منطلقه ما ورد في المثال التالي: "ما تقول أنت ومن قبلك في رجل كان يتيما ضعيفا أجيرا ساهيا لاهيا عائلا خاملا لم يتل كتابا ولم يتعلم خطا ولم يك في محلة علم ولا إرث ملك ولا معدن أدب ولا بيت نبوّة فتراقت الأيام به (...) حتى خرج على العرب عامة وعلى القبائل كافة (...) فألف قلوبها وجمع شتيتها حتى تناصرت القلوب وتواصلت النفوس وترافدت الأيدي ثم اجتمعت الكلمة واتفقت الأفئدة حتى صار غاية لمنتجع أسفارهم، وصاروا له حزبا متفقين وجندا مطيعين، بلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها بينهم، ولا سلطان له عليهم ولا ملك سلف لآبائه فيهم (...) أتقول: إنّه ما قال ذلك كله إلا بوحي عظيم وتنزيل كريم وحكمة بالغة؟

فإن قلت ذلك فقد قررت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول، وتركت ما كنت تقول إنّه لم يدركه ولم يبلغه إلا بعقل سديد ونظر بعيد ورفق لطيف ورأي وثيق، استبى به عقول الرجال واستمال عليه أفئدة العوام. فإن قلتم ذلك، فأنا سائلكم بإلهكم الذي تعبدون (...) أتؤمن قلوبكم وتقرّ عقولكم ويحتمل نظركم أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذي وصفتموه بكمال العقل وبيان الفضل ورفق التدبير، كان يقول لرجالات العرب وجماعات الأمم ودهاة قريش: إنّ من آيات نبوّتي (...) أن

الشياطين ترمى بنجوم السماء ولم تكن ترمى بها فيما خلا، ثم يجعل ذلك كتابا يقرأ وقرآنا يتلى، وهو كاذب فيما تلا ومبطل فيما ادعى إبطالا لا تدركه عيون الناظرين وكذبا يظهر لجميع العالمين، فسبحان الله" (صفوت 228-229).

هكذا لم يقف مؤلف رسالة هارون الرّشيد إلى قسطنطين السادس عن التنويع في هذا الأسلوب الجدالي طوال القسم الأول منها. وعلى ذلك أمثلة عديدة مثل قوله: "ولئن زعمت أنّه ادعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا (...) لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعمى عن بصره إلى ما يخطئ فيه بشر فأكذبت نفسك[1] وتركت قولك: إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب (...) إلا برأي سديد وعقل أصيل (...) إلى أحد أمرين (...) إمّا أن تقول إنّه ألف قلوب العرب وفرّق جموع الأمم بتنزيل وحي فتؤمن أنه نبي، وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل. وهذا قول لا يقبل" (صفوت 230).

وقوله: "فإن قلت: كيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان وصارت المقالة منه كوعي الأذان؟ أنبأك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين الذين حملوا إلينا سنن الدين، هم أدّوا ذلك إلينا وأبقوه فخرا علينا" (عيد 149).

وكما بينا سابقا، فلئن ضلّ أسلوب: "إن قلتَ قلتُ "قائما فإن الأدوار تتغيّر ويكون نموذجها" إن قال المسلمون... قالوا" وأمثلته عديدة. مثل: "إذا قالت العلماء من المسلمين كان نبيّنا صلى الله عليه وسلم عالما بباطن أخبار النبيين وخفيّ قصص القرون الأوّلين. قالوا كان أحيا الناس قلبا (...) يتتبّع ذلك ويحبّه وقد رواه وعلمه" (عيد 139).[2]

ومثل: " إذا قالت الفقهاء والحكماء: أتانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بكلام لم تسمع الآذان بمثله (...) قالوا كان محمد صلى الله عليه وسلم أبلغهم قولا وأحسنهم وصفا" (عيد 141).

ومثل قوله: "إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا كان النبي صلى الله عليه وسلم أميّا لا يحسن الكتاب وحافظا لا ينسى القرآن وقلّما يجتمع العقل السّديد والحفظ السّريع والنسيان البطيء، قالوا: كان أخط الناس يدا وأذكاهم حفظا، كان يكتب بالنهار ويدرس بالليل" (عيد 142).

إلى آخر ذلك من أمثلة هذا الأسلوب الجدالي المعروف ولكنه في هذه الرسالة يتّسم بطرافة واضحة يعكسها فيما سبق من أمثلة إيقاع ثلاثي العناصر: بيان حجة المسلمين، فردّ المخالفين من أهل الكتاب عليها فمناقشة ابن الليث لهذا الردّ متوسعا أحيانا في بيان الحجة المنطلق.

ونكتفي بمثال واحد لإبراز ذلك:

---

[1]- لا تتعارض هذه العبارة مع ما أقررناه سابقا من تجنّب ابن الليث اتهام إمبراطور الروم بالكذب بل هي عبارة تؤكد ما ذهبنا إليه، فابن الليث بهذا الخطاب يحمّل مخاطبه مسؤولية تكذيب نفس المصدر ولا ينعته مباشرة بالكذب.

[2]-في تحقيق زكي صفوت: "وعُلمَهُ"، ص 231.

– أولا: حجة المسلمين: "إذا قال المسلمون: ما من فعال محمود ولا مقال معروف ولا خلق كريم ولا أدب فاضل إلا وقد أدّب الله عزّ وجلّ محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وأنزله في الكتاب إليه" (عيد 144-145).

– ثانيا: ردّ المخالفين من أهل الكتاب: "قالوا: أمور حمل عليها نفسه ودعاه إليها عقله وصبر عليها لمّا أمّل ورجا فيها" (عيد 145).

– ثالثا: ردّ ابن الليث حجتهم ومناقشته لها: "سبحان الله وما أمّل بها وارتجى منها؟ إن قالوا: "الدنيا" فلقد أكذبهم إدباره عنها (...) وإن قالوا "حبّ الأثرة". فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة في سهامهم وقصاصهم وحدودهم وحقوقهم... وإن قالوا: "الملك" فلقد كان أشدّ الناس لربّه تواضعا وأعظمهم في جنبه تصاغرا (...) وإن قالوا "النعيم" فمن كان أيبس منه معاشا وأخشن رياشا، وأغلظه مأكلا (...) فإن قالوا: "طلب الصوت ورغب في الدين" فذلك ما لم يطلبه أحد في حبّ الصوت والتماس الحمد لما صبر على[1] مغاضب قومه وملاوم أهله وشتائم العرب وتوعّد العجم واستهزاء قريش (...) أم يقولون طلب تأثيل الملك لقومه وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه أم كيف يطلب لهم عزّ الملك وقد أوطأهم الذلّ ثم القتل..." (عيد 144-145).

II- الجدل السياسي وآفاق الحوار

حاول ابن الليث أن يجعل الجدل السياسي يتنزّل في الإطار نفسه الذي تنزّل فيه الجدل الديني ونعني بذلك مبدأ "المجادلة بالتي هي أحسن" أسلوبا للحوار. وإن كان الأسلوب نبيلا كانت الغاية أنبل وقد عبّر عنها المؤلف بعبارة "حب النصح" حين كتب "إن أمير المؤمنين قد أحبّ أن ينصح لك (...) فدعاك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنّة وتنجو من النار. فإن قبلت فحظك أصبت ونفسك أحرزت ولك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. وإن أرددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظ في آخرتك، فإنّ أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك" (صفوت 268).

وهذا يدل على مدى الانسجام القائم بين تعاليم الإسلام وممارسة الحاكم المسلم الملتزم بتلك التعاليم إذ دعا المحاورُ المسلم الآخر النصراني إلى التوحيد مقدّمة لاعتناق الإسلام. وأوضح منذ البداية أنّ رفض تلبية الدّعوة إلى "كلمة سواء" لا يعني القطيعة بقدر ما يعني مجرّد التمايز الدّيني" فاشهدوا بأنّا مسلمون "أي أنّ المجادلة بنيت على نوع من الميثاق أو العهد إذ لا إكراه في الدّين"

وبعد استفراغ الحجج والبراهين الممكنة يضلّ الطرف المسلم محافظا على منطلقاته المبدئية: فبعد المناصحة في الدين ينتقل إلى النصيحة الدنيوية. إنّ هذا التحوّل من الدّين إلى السياسة ظل قائما على مبادئ دينية إذ يبدو طلب الجزية

[1]- حرف الجر هذا غير مثبت في تحقيق عيد فأثبتناه من تحقيق صفوت، ص 237.

مؤسسا على تطبيق ما فهمه المسلمون عصرئذ واجتهد فيه بعض العلماء على صعيد شريعتهم فقد ضبط ابن الليث غاية الجزية ولم يسمّ مقدارها لافتا بذل الانتباه إلى أبعادها الإنسانية السليمة وإلى آثارها الاجتماعية الإصلاحية.

فأما الغاية فتبرز من خلال قوله: "الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحرّم بها سباءكم ويجعلها قواما لمعاشكم وصلاحا لبلادكم وتوفيرا لأموالكم وأمنا لجنابكم وسعة لسربكم وبركة على فقرائكم وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم." (صفوت 268).

وأما التغاضي عن مقدار الجزية فهو موقف معلن في قوله: "فابذل من الجزية ما شئت وسمّ منها ما هَويتَ. واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ولكن طاعة لربّه وأثرة لحقه" (صفوت 274).

إن هذا لا يدلّ فقط على كرم من الرشيد باعتباره صاحب إمبراطورية شاسعة وثروات طائلة بل يدلّ أيضا فيما نقدّر أن دفع الجزية التزام رمزي بالعهود المبرمة، استمراره يثبت اتصال النوايا الحسنة وانقطاعه يشي بالتحفز لغدر أو خيانة.

وإننا لنقرأ في الرسالة ما يدلّ على نكث قسطنطين للعهود السابقة ولكن ذلك لم يمنع الرشيد من فتح باب الحوار عقائديا وسياسيا. يقول ابن الليث: "ألا إن أعجب عذركم وأفضعه كان عند أمير المؤمنين، إذ بلغه جرأتكم على الله عزّ وجلّ في نقض عهده واستخفافكم بحقه في حفز ذمته وتهاونكم بما كان منكم (...) إذ كان اعتقد عهدكم وأخذ ميثاقكم بالإيمان المغلظة والعهود المؤكّدة التي قد اعتقدها في رقابكم وحملها على ظهوركم فأشهدتم الله بها على أنفسكم، وتسامع بها من حولكم وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم فلا الله اتقيتم ولا من الناس استحييتم نكثا للعهد وبغضا للمسلمين وخترا بالأمانة وإباحة للحمى" (صفوت 271-272).

وإنه لأمر عجب حقا أن ترد الرسالة على هذه الدرجة من التلطّف واللين رغم أن المخاطب سبقت له يد في نقض العهد. لا نظنّ أن هذا كان مناورة من الرّشيد ولا نعتقد.

إنما الذي نذهب إليه أن المسلمين كانوا يعتقدون أنّهم على حقّ فلا تأخذهم فيه لومة لائم لذا لم تخل الرسالة من تحدّ وشدّة أحيانا مبررها موقف البيزنطيين السياسي ولكن ذلك لا يتعدّى القسم الخاص بالشأن السياسي ولنا عليه أمثلة عديدة:

من ذلك قول ابن الليث بعد أن ذكّر بنقض الإمبراطور للعهد: "فتوقعوا العقوبة وانتظروا الغيب، فلقد وثق أمير المؤمنين أنّ من عذاب الله ما هو حالّ إن شاء الله بكم".

ويضيف "ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه، وقذفه الله في قلبه: من الإرادة والنيّة والرغبة في إيطاء الجيوش بلادكم واستيلاء المقاتلة أرضكم، والتفرّغ لكم من كل شغل، والإيثار لجهادكم على كل عمل حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون وتؤدّوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون" (صفوت 272).

لكن هذه الشدّة هي في الحقيقة وحسب ما يبدو من الرسالة موجهة إلى سلطة غاشمة مستبدة وليس المقصود بها رعايا الإمبراطور البيزنطي فقد عبّر كاتب الرسالة عن ذلك عندما قال "وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده، ومقدّمه إن شاء الله من جيوشه إلا أن تؤدّوا الجزية التي دعاك أمير المؤمنين إليها وحداك ومن قبلك عليها رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم وتوجّعا للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والأسر والفقر[1] والقهر، وقساوة من قلوبكم وأثرة لأنفسكم واعتصاما لخواصكم وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين" (عيد 185).

ويتضح أكثر هذا الموقف المناصر للرعية المنتقد للحكم البيزنطي في ما يلي: "وأيم الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزارعين والفقراء والضعفاء والعملة بأيديهم ما لهم عند أمير المؤمنين، لتحدّروا عليه وأقبلوا إليه، من إيوائهم وإنزالهم الأرض الواسعة وإمكانهم من مسايل المياه السائحة والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقاربه، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا إليهم مع تخليته إياهم وأديانهم، لا يكرههم على خلافها ولا يجبرهم على غيرها لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك وجواره على جوارك ولأنقذوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالهم مما يحلّ بهم في كل عام ويلقون من كلّ غزاة. فاتق الله واقبل ما عرض عليك من الجزية" (صفوت 173).

ورغم هذا النقد الصريح للسياسة البيزنطية المتبعة حيال القبائل والشعوب الخاضعة لحكم إمبراطور الرّوم، فإن خط الرسالة العام حافظ على ما يصطلح عليه اليوم بمقتضيات الدبلوماسية، إذ وضّح أبو الربيع محمد بن الليث أن طلب الجزية لا يلحق الإهانة بمن يدفعها للمسلمين. يقول: "ونحن على رجاء أن الله لا يؤخّر ذلك منكم ويدفعه عنكم إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرّحمة ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان لهم، وأداء الجزية إليهم، حميّة ولا نقيصة ولا عار، والذين يفون لكم بما يعقدون ويتبعون فعلهم ما يقولون" (صفوت 274).

وفي موطن سابق من الرسالة وفي معرض التمهيد للإقناع بفوائد الجزية المضاعفة مقارنة بما غنمه البيزنطيون بدفعهم الفدية في عهد الخليفة المهدي، نجد ابن الليث يفصل الكلام على المنافع العديدة والتي جناها هؤلاء أيّام الفدية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا،[2] ولا يفوّت الفرصة في المجال السياسي دون إبراز ما عاد به الصلح ودفع الفدية على الحاكم نفسه من دعم لأركان حكمه وعلوّ شأنه لدى الأعداء وذيوع صيت دولته بين الأمم.

ويظهر ذلك في قول ابن الليث "(...) وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم، والعامة من أهل ملتكم به: من رأفتكم بهم، ورحمتكم لهم، وشفقتكم عليهم، وأثرتكم

1- غير مثبتة في تحقيق صفوت، ص 273.

2- اعتبر هادي عيد: أنّ أهمية الرسالة التاريخية تكمن في هذه المعلومات التي وفرتها عن الحياة الاجتماعية في عهد الإمبراطور قسطنطين السادس. انظر هادي عيد، مرجع مذكور،ص 29.

إياهم وبركة ولايتكم ملكهم ومنفعة سياستكم أمرهم ما قد زادوا لكم به محبّة وفي بقائكم رغبة، ولأمركم طاعة وعلى ملككم شفقة، وفيما نابكم نصيحة، مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء، والشرف في قلوب النظراء، والعظم في عيون الأمم، حتى أقرّوا لكم بقوة عزائم العقول، وفضل سياسة الأمور وصحّة تدبير الملك، وصدق النية ولطف الحيلة التي جعلوا نسبة عملكم بها، ومحل رأيكم فيها، على أنّكم نظرتم لضعفائكم حتى قووا ولفقرائكم حتى استغنوا" (صفوت 271).

وهكذا يصل إلى لب القضية وأساس المقصد وهو منافع دفع الجزية: "فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية، فلا يكوننّ لك رأي غيرها ولا أمير سواها" (صفوت 271).

خاتمـــة

لا نعلم على وجه الدقة ما كانت عليه آثار هذه الرسالة لدى الطرف المقابل، ولكن ما نعلمه أن باب الحوار قد فتح قطعا والدليل على ذلك ردّ قسطنطين السادس على رسالة الرّشيد. إذ يذكر ابن النديم في الفهرست أن من بين مؤلفات أبي الربيع محمد بن الليث: رسالة قسطنطين في الردّ على الرّشيد.[1]

وإن كانت هذه الرسالة لم تصل إلينا فإن رسالة الرشيد مثلت أنموذجا لما يمكن أن يكون عليه ردّ الإمبراطور البيزنطي نظرا إلى توخّي أسلوب الحوار الافتراضي الذي يسمعك صوت "الآخر" كما يراه "الأنا" ويعتقد أنه يكون انطلاقا من معرفة عميقة بثقافة هذا الآخر المختلف. وهي معرفة تجاوزت الرواية إلى المشاهدة فلم تقف عند عموم الأحكام بل نفذت إلى صميم النصوص الدينية الإسلامية والمسيحية وكانت المناقشات تتناول العقيدتين المختلفتين بنوع من العدل في طرح القضايا فلا يناقش المحاور المسلم عقيدة مناوئه النصراني فحسب بل يفسح المجال في خطابه ذاته ليدافع الآخر عن عقيدته ويردّ الطعون عنها.

وفي الحقيقة لا يغيّر في الأمر كثيرا أن الباث الأصيل ينتصر لرأيه وينافح عن عقيدته فهذا أمر طبيعي، ذلك أن الحوار الإسلامي المسيحي يجد مشروعيته ومرتكزاته في بنية علم الكلام الإسلامي العقلية غاية وأسلوبا. نعني بذلك أن بذرة الانفتاح على الآخر ممثلا في أهل الكتاب هي جزء من العقيدة الإسلامية وقد أوضحنا ذلك فيما أسسته الآية 125 من سورة النحل.

[1]- في ترجمة محمد بن الليث قول ابن نديم: "وله من الكتب كتاب الهليلجة في الإعتبار، كتاب الرد على الزنادقة، كتاب جواب قسطنطين عن الرشيد" ، محمد بن اسحاق، بن النديم (ت385هـ) الفهرست، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص 175.

ويمكن أيضا، مراجعة الإشارة إلى "جواب قسطنطين عن الرشيد" في: الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، الوافي بالوفايات:ج4، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ:2000م،ص 268